المهمة الوجودية للإنسان
ووظيفة الأنبياء
في الهداية والإصلاح

أ/ مسعود فلوسي
المعهد الوطني للتعليم العالي
للعلوم الإسلامية - باتنة -

1- الإنسان والمهمة:

للحياة الإنسانية على هذه الأرض قصة طويلة.. إنها تاريخ مديد ذاهب في الطول والعرض.. تاريخ يروي حكاية الإنسان منذ نشأته الأولى على هذه الأرض، ويصور الأطوار التي تقلب فيها، ويشهد - بحق وصدق - على مدى نجاحه أو إخفاقه في التفاعل مع الكون والحياة، باعتبار أن هذه الحياة هي مسرح اختبار الإنسان وابتلائه، وسلوكه فيها هو مناط سعادته أو إدانته بعدها.

والإنسان وحده من بين سائر المخلوقات من حاز امتياز التعامل مع الحياة والتفاعل مع معطياتها ومكوناتها.

وذلك لأن هذا الإنسان مخلوق متميز، ذو كيان خاص متفرد، فهو هذا الكائن الحي المنتصب القامة، البادي البشرة، صاحب العقل والتفكير والأخلاق.. المزود بالعواطف الجياشة، والإحساسات المختلفة، والمنطق السليم، والكلام الفصيح المبين، الذي علمه الله الأسماء، وأودع في تكوينه القدرة على الإعمار والبناء. (1)

وتميز الإنسان لا يتوقف عند هذا الحد، فهو متوفر - كذلك - على الاستعداد للمعرفة النامية المتجددة بهذا الكون وما فيه ومن فيه. ومجهز لاستقبال المؤثرات الكونية والانفعال بها والاستجابة لها، ومن مجموع انفعالاته واستجاباته يتألف نشاطه الحركي للتعمير والتغيير والتعديل والتحليل والتركيب والتطوير في مادة هذا الكون وطاقاته. (2)

وسر تمييز الله عز وجل للإنسان بهذه الصفات دون غيره من مخلوقاته الكثيرة؛ أنه سبحانه قد خلق الإنسان لغاية لم يخلق لها سائر المخلوقات الأخرى، غاية هي من حيث الأهمية والمكانة فوق سائر الغايات.. إنها الخلافة عن الله عز وجل في الأرض.. كما قال سبحانه: «**إني جاعل في الأرض خليفة**» [البقرة: 30] وقوله: «**ليستخلفنهم في الأرض**». [الأعراف: 129]

فما معنى هذا الإستخلاف أو الخلافة؟ وما حقيقته؟

قال الراغب:

(الخلافة؛ النيابة عن الغير، إما لغيبة المنوب عنه، وإما لموته، وإما لعجزه، وإما لتشريف المستخلف). (3)

ولا ريب أن مفهوم الإستخلاف المذكور في كتاب الله، إنما ينصرف مباشرة إلى المعنى الأخير، فالإنسان ـ من خلال المهمة العظيمة الثقيلة التي أسندت إليه ولم يؤتمن عليها غيره ـ إنما نال الشرف والحظوة عند الله عز وجل، كما قال تعالى: «**إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان**». [الأحزاب: 72]

فالإنسان بمقتضى استخلاف الله عز وجل له في هذا الكون، سلطان يحوز على صلاحيات التدبير والتسيير في إطار مقتضيات الخلافة، والمتمثلة في الائتمار بما أمر الله والانتهاء عما نهى عنه، وهو ما شرحه الرسول ﷺ فيما رواه ثوبان رضي الله عنه، إذ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، فهو خليفة الله وخليفة كتابه وخليفة رسوله». (4)

وخلافة الإنسان عن الله عز وجل تقتضي أن يكون همه الأكبر ترقيه نحو مستخلفه، واقترابه منه ليحقق معنى الإستخلاف على الوجه الأفضل... وذلك بالعمل الدائب والكدح المستديم لترقية ذاته وتنميتها حتى يبلغ من الاكتمال الدرجة التي ذكرها الله في قوله: «**يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه**». [الإنشقاق: 6]

وهذا التكامل لا يكون إلا عبر منهاج العبادة، إذ العبادة هي قوام الاستخلاف وعماده، قال تعالى: «**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**» [الذاريات:56]، ومعنى العبادة؛ إسلام النفس في كل ما يفعل الإنسان ويذر لما يريده الله ويرضاه عبر الالتزام الكلي بفعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه. (5)

وهذا الالتزام التعبدي المطلوب من الإنسان في الحياة (لا يقتصر على فترات متقطعة من الزمن، أو أماكن محددة من العالم، وإنما ينساح لكي يشمل كل الأماكن والأزمان. ليس هذا فحسب، بل إنه في جوهره تذكّر للوجود الإلهي في الكون، وإدراك لأبعاده الشاملة: قدرة وإرادة وإحاطة ورقابة وعلما.. واتصال دائم بالله سبحانه في كل ما يصدر عن الإنسان... وتقدير لعظمة الله الذي خلق الكون والحياة والإنسان على أروع وأدق نظام.. واعتراف بالجميل للخلاق المبدع الذي هيأ للبشرية ظروفا تمكنها - في كل وقت - من تحقيق السعادة الكاملة في الأرض والسماء.. إن التعبد - بهذا المعنى - يمتد إلى كل مساحات الحياة البشرية.. تماما كما تمتد الدماء في أوصال الجسد البشري وخلاياه). (6)

وإذا أردنا أن نعبر بطريقة أخرى قلنا: أن خلافة الإنسان عن الله في الأرض مشروطة ومقيدة بعهد الله وميثاقه: أن يستقيم هذا الكائن على هداه، ومنهجه وشريعته.. وأن يجعل سعيه كله لله الذي استخلفه في هذا الملك العريض، وأن يحكّم منهج الله في ذاته وفي حياته.. وإلا تعرضت حياته كلها للفساد، وتعرضت أعماله كلها للبطلان، وتعرض لعذاب الله في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما جميعا. (7)

لذلك كان مقياس تقدير قيمة الإنسان مرتبطا بمقدار تقدمه في مضمار العبادة لله والتوجه إليه بالطاعة والخضوع. فعظمة الإنسان تكمن في معرفته لمن خلقه فسواه.. لله الذي خلق هذا الكون ومكنه فيه وسخره له. (8)

وهذا المقياس، كما ينطبق على الفرد، فهو كذلك ينطبق على الأمم أيضا. إذ حين نتحدث عن تقدم البشرية، فإنما نتحدث عن تلك القيم والمبادئ التي

تجعل من الإنسان إنسانا بصرف النظر عن حظه من التقدم المادي، فمقياس التقدير مرتبط بكيفية تعامله مع ربه ومع نفسه ومع الناس من حوله ومع الحياة التي يعيشها ومع الكون المحيط به. (9)

وسور القرآن الكريم وأسفار التوراة والإنجيل ملأى بالقصص التي تؤكد - فيما تحمله من دلالات - على أن كل أمة آمنت وعملت صالحا وعدلت قد أفلحت وسعدت، وكل أمة ظلمت وكفرت بأنعم الله وركبت هواها، قد هلكت وانقرضت دولتها وذهب ذكرها. (10)

2- الإستخلاف مبني على حرية الإختيار:

هذا، ورغم أن الله عز وجل قد ناط بالإنسان مهمة خلافته في الأرض، بما يقتضيه ذلك من تعبد وتذلل وخضوع من الإنسان بين يديه سبحانه، فإنه - مع ذلك - لم يجعل تكليفه له بهذه المهمة أمرا قسريا يقوم به الإنسان دون اختيار منه ولا رغبة فيه، وإنما جعل القيام بهذه المهمة سلوكا اختياريا، من شاء أداه ومن شاء فرط فيه، ولكن النتيجة بالنسبة لكليهما ليست واحدة، فليس من اجتهد كمن فرط.

ويبدو هذا من خلال التركيب الذي قام عليه بناء الإنسان، إذ هو بهذا التركيب كائن عجيب يجمع النقائض في تركيبه، يقدر على التسامي وعلى الإسفاف، يقدر على الاستقامة وعلى الانحراف. (11) وقد نبه القرآن الكريم إلى هذا الخليط في التكوين البشري، فقال جل شأنه: «**إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا**». [الإنسان: 20]

فالإنسان مستعد حسب تكوينه الذاتي الذي ركب عليه، لأن يرتفع إلى أرقى من آفاق الملائكة المقربين، كما أنه مستعد لأن ينحط إلى أدنى درجات الحيوان البهيم. وذلك حسب ما يبذل هو من جهد في تزكية نفسه أو تدسيتها، وحسبما يتلقى من عون من الله وهداية ورعاية، مرجعها ما يبذل من جهد ومحاولة في الارتباط ببارئه الأعلى وأحكامه وتشريعاته. (12)

ومن رحمة الله عز وجل بالإنسان أنه فطره على السمو إلى أسمى الآفاق، وبث في نفسه الأشواق التي تحمله على التحليق في سماء الإيمان، والارتفاع عن دركات الضلال والكفر والشرك، والعمل على بلوغ الكمال في التقرب إلى الله.

بيان ذلك أن الإنسان فيه جانبان: جانب مادي أرضي، وجانب روحي سماوي. أما الجانب المادي فهو متكامل بالفعل، بمعنى أن الإنسان بهيكله المادي البحت يكون كاملا منذ اللحظة التي يولد فيها... وما ذلك إلا لتحقيق الاستفادة القصوى من أعضائه.

وأما الجانب الروحي في الإنسان - والذي هو الإنسان حقا - فهو كامل أيضا، ولكن بالقوة لا بالفعل، بمعنى أن الإنسان يولد حاملا معه رصيدا يتيح له كماله الروحي فيما لو استفاد منه، وهذا الرصيد هو "الفطرة" التي تنير له طريقه وتهديه سبل الكمال التي هي علة وجوده، فمعرفة الإنسان لله إنما تتم عن طريق تكامله، ومن هنا كان لازما أن يكون الإنسان حرا مختارا في تصرفاته، فإن شاء فعل وإن شاء ترك، ليحقق كماله بنفسه. (13)

3- حاجة الإنسان إلى النبوة:

وإذْ خلق الله عز وجل الإنسان لتلك الغاية، وإذ كان الإنسان غير قادر بنفسه على معرفة سبيل التعامل مع ربه ومع الكون ومع الحياة، وبما أن صوت الفطرة لا يكفي وحده لتعريف الإنسان بحقيقة الغيب وما فيه، إذ كثيرا ما تغطي عليه الأدران، فقد احتاج إلى دليل يرشده وهاد ينير له سبيل الصراط المستقيم الموصل إلى ربه عز وجل. وذلك الهادي والمرشد، لم يكن سوى صوت النبوة، الذي ظل يرتفع في الإنسانية حينا بعد حين منذ آدم عليه السلام إلى خاتم الرسل محمد عليه الصلاة والسلام.

3-1 وحاجة الإنسان إلى الهداية النبوية تنبع من تركيبه الذاتي أولا، إذ جهزه الله عز وجل بإمكانات وقدرات خاصة تيسر له سبيل النهوض بمهمة الخلافة في الأرض، كالعلم والقدرة والنزوع إلى الأثرة والتملك وحب الذات..

غير أن هذه الصفات والقدرات أسلحة ذات حدين، فهي تصلح لأن تكون أداة تخريب وإفساد وتدمير، كما تصلح أن تكون أداة إصلاح وإسعاد وتعمير. لذا فقد كان الإنسان بحاجة إلى تبصرة سليمة ودقيقة بحقيقة هذه الصفات التي ركبت فيه، وبالحكمة من وجودها في كيانه وتميزه بها عن سائر المخلوقات الأخرى، وإلى تعريف بكيفية استعمالها على وجهها الصحيح، وإلى معرفة العلاج الواقي من أخطارها.

ولا شيء يجنب الإنسان أوضار هذه الصفات غير صوت الوحي الرباني، الذي لم يكن يتضمن - على كثرة ما تضمنه من أحكام وتعليمات متنوعة خلال تتابع نزوله إلى الناس منذ آدم إلى محمد ﷺ - أكثر من تبصير الإنسان بالطريقة المثلى التي يجب أن يمارس بها تلك الصفات والملكات التي ركبت في كيانه والتي ليست في أصلها وحقيقتها إلا من بعض صفات الربوبية، وبالعلاج الواقي من الوقوع في سكرتها والتطوح بنشوتها. (14)

3-2 ثم إن الإنسان لما خلقه الله عز وجل على وجه يقتضي اختبار إرادته وسلوكه في الحياة، وليبلوا بني آدم أيهم أحسن عملا، اقتضى ذلك تعريفه بطرق الخير والشر وحثه على طرق الخير، وترغيبه بالثواب إذا هو اختارها وسلك فيها، وبتنبيهه على طرق الشر وتحذيره منها، وترهيبه من العقاب إذا هو اختارها وسلك فيها. ثم بتوجيه الأوامر والنواهي له، وتحديد طرق الحلال والحرام. (15)

3-3 كما تنبع هذه الحاجة أيضا من طبيعة الحياة الإنسانية المبنية على الاجتماع، وما يتقضيه من ضرورة وجود نظام يحكم هذا الاجتماع، ولو وكل الناس إلى أنفسهم أن يضعوا نظاما لأنفسهم، فإنهم في هذه الحال لا يخلو وضعهم من أحد أمرين، فهم:

إما أن يكونوا متكافئين، بحيث لا يقدر فرد ولا طائفة على التسلط والغلبة والقهر على الآخرين. وهذا مما يجعلهم في تناحر وتمزق وشقاق دائم... لاختلاف المنازع والأهواء، وتفاوت العقول والمصالح...

وإما أن يكون في الناس غالب ومغلوب، وفي هذه الحال سوف تكون الكلمة في وضع النظام لأصحاب الغلبة من ذوي الجاه والسلطان والترف والشرف، وطابع هؤلاء ـ في الغالب ـ الاستكبار والاستعباد، وحينئذ ستكون صيغة النظام متلائمة مع مصالح الطبقة المستعلية، فلا يجد معها الضعيف والفقير حقا يذكر، وهنا تنتشر الأحقاد والبغضاء، والفساد والظلم، والجور والبغي. ولأجل ذلك كله فإن الله سبحانه ـ رحمة منه بعباده ـ بعث إليهم الرسل الذين يهدونهم إلى أيسر السبل وأقومها في كل ما يحتاجون إليه في معاشهم ومعادهم، (16) ولو تركت أزمّة الفكر الإنساني للاجتهاد المحض، لضل الناس رشدهم، ولما اتفقوا على حقيقة واحدة تصلح حالهم ومآلهم. (17)

3-4 وحاجة الإنسان إلى النبوة لا تقف عند هذه الحدود، بل إن لها أبعادا أخرى، فمع أن الله عز وجل قد زود الإنسان بالفطرة التي تعرفه بالله وتنير أرجاء نفسه وتقيه الوقوع في مهالك الغواية والضلالة، إلا أن الإنسان قد ينحرف عن الطريق القويم الذي تفرضه الفطرة، فلا تتمكن بعد هذا من هدايته.

وهنا يأتي دور النبوة في حياة الإنسان، فإن الله سبحانه لا يترك هذا الإنسان ليتابع سيره الخاطئ الذي يبتعد به كلما توغل فيه عن الهدف من وجوده، بل يرسل الأنبياء والرسل ليقوّموا اعوجاجه ويعيدوه إلى فطرته، بعد تذكيرها ما نسيت وإصلاحها إن فسدت...

وبإرسال الرسل أيضا تقوم الحجة كاملة على الإنسان فيما لو استمر في انحرافه، إذ قد يكابر وينكر الفطرة، ولكنه أبدا لا يستطيع إنكار الأنبياء والرسل مع ما يحملونه من معجزات. (18)

3-5 ثم إن كثيرا من الحقائق العلمية التي لا غنية عنها لإصلاح الناس وتقويم سلوكهم في الحياة، والتي يبلغها للناس رسل الله، لا يمكن للعقل البشري أن يتعرف عليها بنفسه بالوسائل الإنسانية العادية، ومنها الدار الآخرة، والجنة والنار وما فيهما.

لذلك كان لابد من أن يتعرف الناس عليها عن طريق المتصلين بالوحي، المطلعين على ما يطلعهم الله عليه مما في الغيوب، والمبلغين عن الله خالق الغيب والشهادة، وهؤلاء المتصلون بالوحي هم الرسل الذين اصطفاهم الله برسالاته.(19)

4- سنة الله في إرسال الرسل والأنبياء:

لذلك كان من سنة الله عز وجل أن يرسل إلى خلقه بين الفترة والفترة رسلا وأنبياء يعلمونهم حقيقة ربهم وواجبهم تجاهه وحقيقة وجودهم في هذه الحياة،حتى تستقيم خطاهم مع خطى الكون، وحركاتهم مع حركة الكون، وفطرتهم مع فطرة الكون. (20)

إنها سنة الله في إرسال الرسل جميعا، من عهد نوح إلى محمد، قال سبحانه: «**إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان، وآتينا داود زبورا. ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك، وكلم الله موسى تكليما. رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما**». [النساء: 163-165]

أولئك الرسل... اقتضت عدالة الله ورحمته أن يبعث بهم إلى عباده يبشرونهم بما أعده الله للمؤمنين الطائعين من نعيم ورضوان، وينذرونهم ما أعده الله للكافرين العصاة من جحيم وغضب، (21) قال تعالى: «**إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا، وإن من أمة إلا خلا فيها نذير**». [فاطر: 24]

وكما كان من سنة الله عز وجل أن يرسل إلى الناس رسلا مبشرين ومنذرين، فقد كان من سنته أيضا أن يكون هؤلاء الرسل من بني البشر أنفسهم، لا من الملائكة أو غيرهم من مخلوقات الله، فكل الرسل والأنبياء كانوا بشرا، وكانوا من ذات الأقوام التي أرسلوا إليها.

(والحكمة من جعل الرسول بشرا؛ أن يكون قدوة للناس، يحس بما يحسون، ويشعر بما يشعرون، يجوع كما يجوعون، ويعطش كما يعطشون، وينام كما ينامون، ويتألم كما يتألمون، ويصاب بكل ما يصابون به... حتى يكون مثلا لأمته تقتدي به.

أما لو جاءهم ملك فأمرهم بشيء، فإنهم يقولون له: أنت ملك ونحن بشر، طباعنا غير طباعك، نجوع ولا تجوع، نعطش ولا تعطش، نرغب ولا ترغب، توسوسنا الأهواء والشهوات ونفوسنا ولا يوسوسك شيء، فكيف نعبد مثلما تعبد ونحن مختلفون؟

لكن هذه الحجة لا تقال إذا كان الرسول بشرا، ولا فرق بين الرسول وسائر البشر إلا أن الله تعالى اصطفاه فجعله الواسطة بينهم وبينه. وبالطبع يكون معصوما من أشياء لأن الله تعالى يعينه ويؤيده، أما ما سوى ذلك من التبعات فهو مثلهم أو أكثر منهم). [22]

إن الناس بحاجة في إصلاح أفرادهم ومجتمعاتهم إلى مصلح مثالي يكون أسوة حسنة لهم. وشخصية المصلح المثالي يجب أن تتوافر فيها: صفة القدوة الحسنة، والعصمة عن الخطأ فيما يهدي إليه من المبادئ والعلوم، والعصمة من الانحراف عن الأعمال والأخلاق التي يرشد إليها ويأمر بها، لأنه لو لم يكن كذلك لكان قدوة سيئة لهم، ولا نقلب مفهوم الشر إلى خير، والخير إلى شر.

ولا يمكن أن تتوافر هذه الصفات - بحسب الإحصاء البشري - إلا في الرسول المعصوم، المؤيد من عند الله بالمعجزات الباهرات. ولذلك أرسل الله الرسل المعصومين عن الخطأ في تبليغ الشريعة، وعن المعصية في السلوك. [23]

كل ذلك **«لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسول»**. [النساء: 165]

5- الأبعاد الكبرى للدعوة النبوية ودورها في حياة الإنسان:

كل الأنبياء والرسل الذين أرسل الله بهم إلى الإنسانية مبشرين ومنذرين، إنما جاؤوا لتحقيق غاية واحدة هي تعريف الناس بالله وحملهم على

التوجه إليه بالعبادة والخضوع، ورغم تنوع التشريعات التي جاء بها الأنبياء والجوانب الدعوية التي ركز عليها كل منهم، إلا أنها تلتقي كلها في عدة محاور محددة هي:

1-5 هداية البشرية إلى معرفة الخالق وتوحيده:

كانت دعوة الرسل جميعا إلى أقوامهم دعوة واحدة، هي دعوة التوحيد: لا إله إلا الله.. اعبدوا الله ما لكم من إله غيره..

وفي أكثر من سورة من سور القرآن يأتي تسلسل مقصود لتاريخ الرسل الذين أرسلوا إلى أقوامهم، كل رسول يقول الكلمة ذاتها، ويمضي، فيجيء الرسول الذي يأتي بعده فيقول ذات الكلمة، حتى لكأنهم رسول واحد على اختلاف الزمن واختلاف لغات الأقوام: «**ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير مبين. ألا تعبدوا إلا الله. إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم**» [هود: 25-26]. «**وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره..**» [هود: 50]. «**وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره..**» [هود: 61]. «**وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره..**» [هود: 84]. «**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**». [الأنبياء: 25]

ويلفت النظر في هذه الآيات ـ ومثلها في القرآن كثير ـ أن الرسل الكرام لم يرسلوا إلى أقوامهم ليقولوا لهم إن هناك إلها.. فالفطرة تعرف ذلك دون رسول، ولا ليقولوا لهم: اعبدوا الإله الذي تعرفون وجوده، فالفطرة تتوجه إلى عبادة الإله الذي تعرفه، تلقائيا بغير رسول، وإن غشيتها الغواشي واجتاحها الضلال.(24)

ولكن رغم أن الفطرة البشرية بذاتها تعرف وجود الخالق وتتجه إليه بالعبادة، إلا أنها كثيرا ما تضل وتتصور الخالق على غير حقيقته وتشرك معه آلهة أخرى. ومن ثم يرسل الله الرسل ليعرفوا البشر بحقيقة خالقهم وينفوا من عقولهم ونفوسهم التصورات الباطلة عنه سبحانه وتعالى وما يترتب عليها من

انحرافات في الفكر والسلوك، وليعالجوا بصفة خاصة قضية الشرك، وهي أشد ما يتعرض له البشر من انحراف في تصورهم للخالق وسلوكهم نحوه.

فإذا عرف البشر ربهم كما ينبغي له سبحانه، بقيت القضية الأخرى التي يضل البشر بشأنها، وهي الطريقة الصحيحة لعبادة الله. فالعبادة ليست فقط في الاعتقاد بأن الله واحد لا شريك له، ولا في تقديم شعائر التعبد المتنوعة، بل لابد من الاحتكام إليه سبحانه في كل شأن وعدم الاحتكام إلى غيره كائنا من كان: (25) «**واتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون**». [الأعراف: 3]

وكل من له صلة بالقرآن - وهو الجامع لخلاصات الكتب السالفة - يعرف أن القضاء على الوثنية والإنكار عليها ومحاربتها وإنقاذ الناس من براثنها، كان هدف النبوة الأول، ومقصد بعثة الأنبياء، وأساس دعوتهم، ومنتهى أعمالهم، وغاية جهادهم. (26)

2-5 بيان حقيقة الدنيا وأنها طريق إلى الآخرة:

وكما عرفنا عن طريق الرسل مبدأ الإيمان بالله، عرفنا كذلك الإيمان باليوم الآخر وما يسبقه وما يلحقه من حساب وثواب وعقاب.. ولولا بلاغ الوحي لعجز العقل المجرد عن فهم النهاية المرتقبة لهذا العالم الزاخر... فرسالات السماء التي جاء بها الأنبياء هي وحدها التي كشفت الغطاء عن كل ما قد يثار حول البعث من ريب، وقدمت للمرء كشفا مفصلا بالجزئيات التي سوف يلقاها عقب انتهاء أيامه في هذه الدار الدنيا. (27)

إن الحياة - فيما تؤكده رسالات الأنبياء - ليست هي الفترة القصيرة التي تمثل عمر الفرد، وليست هي هذه الفترة المحدودة التي تمثل عمر الأمة من الناس، كما أنها ليست هي هذه الفترة المشهودة التي تمثل عمر البشرية في هذه الحياة الدنيا، إنما تمتد لتشمل الحياة الأخرى التي لا يعلم مداها إلا الله، والتي تعد فترة الحياة الدنيا بالقياس إليها ساعة من نهار. (28)

وعناية دعوة الأنبياء بالاهتمام ببيان المصير النهائي للإنسان وما سيلاقيه فيه، إنما يرجع إلى اعتبارين اثنين:

- طبيعة الإنسان ذاته، بما جبلت عليه من حب التكاثر، والميل إلى التفاخر بالأموال والأولاد والجاه، وشدة الجزع، وكثرة الغفلة والنسيان، وسهولة الاستدراج...

- وطبيعة الدنيا نفسها، المليئة بما يجذب الإنسان إليها، ويقعد به عن معالي الأمور، إذا هو سكن إليها وانساق وراءها، [29] كما قال تعالى: «**إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا**» [الكهف: 7]. وقال سبحانه: «**يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرّنّكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور**». [فاطر: 5]

لذلك كله حرص الأنبياء وعملوا على إفهام الناس أن اختيار طريق الدنيا معناه الخسارة الفادحة لهم، إذ لا يجوز بحال أن تؤخذ الدنيا كهدف، وإنما هي ممر يوصل الإنسان إلى السعادة في الآخرة إذا عرف كيف يجتازه ويتجاوز مخاطره. [30]

3-5 التشديد على الإيمان بالغيب:

ومن سمات دعوة الأنبياء... أنها تشدد على الإيمان بالغيب، وتجعله شرطا أساسيا للهداية والانتفاع بالدين، وشعارا للمهتدين وعلامة للمتقين، قال جل جلاله: «**الم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون**». [البقرة: 1-5] وتطلب من الذين يؤمنون بالله ويدخلون في الإسلام - الذي هو دين جميع الأنبياء - أن يصدقوا بكل ما جاء عن الرسل وذكر في الكتب السماوية، مما لم يجرّبه البشر، ولم يصدقه الحس، ولم تألفه العقول، اعتمادا على إخبار الرسل وحده، وصدقهم فيما يروونه وينسبونه إلى الله. [31]

والحق أن الإيمان بالغيب هو العتبة التي إذا اجتازها "الفرد" فإنه

يتجاوز مرتبة "الحيوان" الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، إلى مرتبة "الإنسان" الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدود الذي تدركه الحواس - أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس - وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله، ولحقيقة وجوده الذاتي، ولحقيقة القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود، وللحقيقة العظمى التي تسير هذا الوجود بمشيئتها المطلقة. (32)

4-5 التربية على تزكية النفوس وتقويم السلوك:

ليست وظيفة الرسل هذا الإرشاد العقلي إلى حقائق الحياة فحسب، بل إن تربية الأصحاب والأتباع على هذه المبادئ من أهم ما جاؤوا به. وهذه التربية التي تولاها الأنبياء تقوم على إحداث تغيير نفساني عميق في كيان الإنسان.(33) ولذلك كانت من أشق المهام التي قام الرسل بأدائها، لأن النفوس لا تستقيم على المنهج الصحيح بمجرد دعوتها إليه! حتى لو عرفت وآمنت بأنه هو الحق، وأنه هو الأولى بالاتباع! ذلك أن في النفوس نزعات دائمة التطلع إلى متاع الحياة الدنيا ولذائذها، ويحتاج ضبطها داخل حدود الله إلى جهد ليس بالقليل، وإلى تذكر دائم بالله وخشية منه، وذلك ما لا يمكن تركيزه في نفس الإنسان بسهولة. (34)

إن الأنبياء - صلوات الله عليهم وسلامه - هم الذين منحوا الأجيال البشرية - بفضل هذه التربية - ثروة لا تفنى، تلك هي قوة كراهة الشر وحب الخير، والتمرد على قوى الشر ونوازعه والاندفاع إلى الخير والجهاد في سبيله، هذه القوة التي كانت العامل الأساسي الأكبر في كل ما قام به البشر من مآثر وبطولات عبر تاريخ الإنسانية الطويل. (35)

والحق أنه ما خلدت رسالات النبيين وكونت حولها جماهير المؤمنين إلا لأن النفس الإنسانية كانت موضوع عملها ومحور نشاطها، لقد خلطوا مبادئهم بطوايا النفس، فأصبحت هذه المبادئ قوة تهيمن على وساوس الطبيعة البشرية وتتحكم في اتجاهاتها. (36)

5-5 بناء الحضارة الربانية:

هذا، وإذا شئنا أن نلخص عمل الأنبياء في الحياة الإنسانية، قلنا:

(إن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كانوا مؤسسي حضارة ومدنية وعشرة واجتماع وأسلوب من الحياة جديد خاص، جدير بأن يسمى الحضارة الربانية، ولهذه الحضارة أصول ودعائم وعلامات وشعائر تمتاز بها عن الحضارات الأخرى، امتيازا في الأساس وفي الروح وفي الأشكال والتفاصيل.

وكان إبراهيم الخليل الحنيف ـ عليه السلام ـ إمام هذه الحضارة الحنيفية، المؤسّسة على متابعة الفطرة السليمة والقلب السليم، المؤسسة على الحياء والأدب مع الله، والإنابة والرحمة، ورقة العاطفة، وقد سرت أخلاقه في هذه المدنية ومنهج الحياة: «**إن إبراهيم لحليم أواه منيب**» [هود: 75]، وكان إبراهيم ولا يزال مؤسس هذه الحضارة، وكان رسول الله محمد ﷺ مجدد هذه الحضارة ومتممها، وهو الذي بعث فيها الروح وأفاض عليها الخلود، وأرسى قواعدها، وشدّ بنيانها، وجعلها خالدة باقية، عالمية.

إن هذه الحضارة الربانية لا تعرف الوثنية والشرك ولا تسمح به في لون من الألوان، في أي مكان وزمان، فكان أعظم دعاء إبراهيم وأكبر همه: «**واجنبني وبني أن نعبد الأصنام**» [إبراهيم: 35]، وكان أكبر وصيته ودعوته للأمم والأفراد جميعا: «**فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور، حنفاء لله غير مشركين به**». [الحج: 31-32]

إنها لا تعرف التهالك على الشهوات والتكالب على حطام الدنيا، فهي دعوة لم تزل عقيدتها: «**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين**». [القصص: 83]

إنها حضارة لا تفصل بين الإنسان والإنسان.. فالناس كلهم من آدم، وآدم من تراب: «**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**». [الحجرات: 13]

إنها حضارة عجنت مع اسم الله ومراقبته، وصبغت بصبغة الله وقامت على أساس الإيمان، فلا يمكن تجريدها عن الطابع الديني واللون الرباني والروح الإيماني). (37)

6- منهج وطبيعة عمل الأنبياء في الحياة الإنسانية:

والأنبياء -وهم يعملون لهداية الناس وحملهم على السلوك على مقتضى أوامر الله عز وجل ونواهيه، كان لهم منهجهم الخاص في الدعوة إلى الله، وهذا المنهج يقوم على الأسس والوظائف التالية:

1-6 أسس المنهج:

أ- التزام النبي بالتبيغ دون إلزام الناس بالإيمان: يبين القرآن الكريم وظيفة الرسول وعمله وموقف الناس منه، وموقفه من الناس: «**وأرسلناك للناس رسولا، وكفى بالله شهيدا. من يطع الرسول فقد أطاع الله. ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا**» [النساء: 79]، «**ما على الرسول إلا البلاغ، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون**». [المائدة: 99]

فوظيفة الرسول هي أداء الرسالة، لا إحداث الخير ولا إحداث السوء، فهذا من أمر الله.

وأمر الناس مع الرسول ﷺ أن من أطاعه فقد أطاع الله، فالرسل قد أرسلت لتطاع -بإذن الله- لا لمجرد الإبلاغ والإقناع فحسب: «**وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله**» [النساء: 63]، فلا تفرقة بين الله ورسوله، ولا بين قول الله وقول رسوله، ومن تولى معرضا مكذبا فأمره إلى الله من ناحية حسابه وجزائه.

ولم يرسل الرسول ﷺ إلى الإنسان ليجبره على الهدى، ويكرهه على الدين، وليس موكلا بحفظه من العصيان والضلال، فهذا ليس داخلا في وظيفة الرسول، ولا داخلا في قدرة الرسول: «**وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين، فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون**»[الأنعام: 48-49]،فالرسول وظيفته الأولى والأخيرة؛أنه رسول.(38)

ب ـ حب الخير للناس وتمني إيمانهم جميعا به: (إن الرسل عندما يكلفون حمل الرسالة إلى الناس، يكون أحب شيء إلى نفوسهم أن يجتمع الناس على الدعوة، وأن يدركوا الخير الذي جاءوهم به من عند الله فيتبعوه.. ولكن العقبات في طريق الدعوات كثيرة، والرسل بشر محدودو الأجل، وهم يحسون هذا ويعلمونه، فيتمنون لو يجذبون الناس إلى دعوتهم بأسرع طريق.. يودون مثلا لو هادنوا الناس فيما يعز على الناس أن يتركوه من عادات وتقاليد وموروثات فيسكتوا عنها مؤقتا لعل الناس أن يفيئوا إلى الهدى، فإذا دخلوا فيه أمكن صرفهم عن تلك الموروثات العزيزة.

يودون مثلا لو جاروهم في شيء يسير من رغبات نفوسهم رجاء استدراجهم إلي العقيدة، على أمل أن تتم فيما بعد تربيتهم الصحيحة التي تطرد هذه الرغبات المألوفة.

ويودون.. ويودون، من مثل هذه الأماني والرغبات البشرية المتعلقة بنشر الدعوة وانتصارها.. ذلك على حين يريد الله أن تمضي الدعوة على أصولها الكاملة، وفق موازينها الدقيقة، ثم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر). (39)

جـ ـ الدعوة إلى الإصلاح المتجردة عن الغرض الشخصي: لم يأت الرسل بما جاؤوا به ليحصلوا على مكانة بين الناس، أو على جاه شخصي، أوليطلبوا مالا أو ملكا، وإنما جاؤوا بما جاؤوا به لأن الله كلفهم بتبليغه للناس، ولذلك كان الرسل عليهم السلام يعلنون تجردهم عن الغرض الشخصي بقولهم لأقوامهم: « لا نسألكم عليه أجرا ».

وقد أمر الله محمدا عليه الصلاة والسلام أن يقتدي بهدي الرسل السابقين (40) اللذين تحملوا أمانة التبليغ من قبله: «**أولئك الذي هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين**». [الأنعام: 6]

د ـ الصدع بالحق وعدم محاباة أحد فيه: (السنة العامة في أنبياء الله قاطبة أنهم في نظرتهم إلى جلال الله تتضاءل في أعينهم شخوص المخلوقين...

والأنبياء واضحون في رسالاتهم، ليس في دعواتهم جانب غامض أو غرض مستور، يقول الله في موسى وهارون: «**وآتيناهما الكتاب المستبين، وهديناهما الصراط المستقيم**». [الصافات: 117-118]

وهم بهذا الوضوح في رسالاتهم يفاصلون الناس على الكفر أو الإيمان: «**ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة**». [الأنفال: 42]

وقد كان من الممكن أن تعرض الدعوات على الكارهين والناقمين بأسلوب ملتوٍ كليل الحد يهادن الشهوات ويسالم الإفك والخرافات، إلى حين.. ولكن الله عز وجل رفض هذا الأسلوب، فقال: «**فلا تطع المكذبين ودوا لو تدهن فيدهنون**» [القلم: 8-9]. فالحق لا يتجزأ والإيمان به كذلك لا ينقسم.

ومن هنا حرض الله نبيه أن يبقي على دعوته الكاملة، ورسالته الشاملة، غير مكترث بما يقترحه الكافرون (41) : «**فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك. إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل**». [هود: 12]

2-6 وظائف الدعوة النبوية ومهماتها:

أ- تبليغ الشريعة الربانية: إن أول وظيفة قام بها كل رسول من رسل الله عليهم الصلاة والسلام، هي وظيفة تبليغ رسالات الله لخلقه، على الوجه الذي أمره الله به، دون تغيير أو تبديل أو كتمان، أو زيادة أو نقصان. (42)

فمهمة الرسل الأولى هي إبلاغ هذه الأمانة التي تحملوها إلى عباد الله. والبلاغ يحتاج إلى الشجاعة والإقدام وعدم خشية الناس وهو يبلغهم ما يخالف معتقداتهم، ويأمرهم بما يستنكرونه، وينهاهم عما ألفوه: «**الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله**». [الأحزاب: 39]

والبلاغ يكون بتلاوة النصوص التي أوحاها الله من غير نقصان ولا زيادة: «**اتل ما أوحي إليك من الكتاب**» [العنكبوت: 39]. فإذا كان الموحى به ليس نصا يتلى فيكون البلاغ ببيان الأوامر والنواهي التي أوحاها الله من غير تبديل ولا تغيير. (43)

ب ـ تبيين معاني النصوص التي أنزلت إلى الناس: وقد اقتضت حكمة الله العظيمة أن يجعل للنصوص التي ينزلها إلى الناس صفة الشمول والعموم.. فهي إذن بحاجة إلى بيان وتوضيح، ولذلك جعل من وظائف الرسول أن يبين للناس معاني هذه النصوص المنزلة إليهم.. ليؤمنوا بما يطلب منهم الإيمان به، ويعملوا بما يطلب منهم العمل به...

وقد أوضح القرآن الكريم هذه الوظيفة في عدة آيات كريمات، منها قوله تعالى خطابا لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام: «**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون**» [النحل: 16]. (44) فالرسول أقدر من غيره على التعرف على معاني ومرامي ما أنزل إليه، وأعرف من غيره بمراد الله من وحيه. (45)

جـ ـ تقويم السلوك المنحرف وعلاج مشكلات البشر: لقد كان كل رسول يدعو قومه إلى الصراط المستقيم ويبينه لهم ويهديهم إليه، وهذا أمر متفق عليه بين الرسل جميعا، ثم كل رسول يقوّم الانحراف الحادث في عصره ومصره... فنوح أنكر على قومه عبادة الأصنام، وكذلك إبراهيم، وهود أنكر على قومه الاستعلاء في الأرض والتجبر فيها والعبث والانحراف: «**أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون، وإذا بطشتم بطشتم جبارين**» [الشعراء: 128-130]، وصالح أنكر عليهم الإفساد في الأرض واتباع المفسدين: «**فاتقوا الله وأطيعون. ولا تطيعوا أمر المسرفين. الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون**» [الشعراء:150-152]، ولوط حارب جريمة اللواط التي استشرت في قومه، وكان يقول لقومه: «**أتاتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين**» [الأعراف: 80]، «**أتاتون الذكران من العالمين. وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم، بل أنتم قوم عادون**» [الشعراء: 165-166]، وشعيب قاوم في قومه جريمة التطفيف في المكيال والميزان، وكان يقول لقومه: «**يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، ولا تنقصوا المكيال والميزان، إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط. ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض**

مفسدين، بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين. وما أنا عليكم بحفيظ» [هود:84-86]. وهكذا، فكل هذه الجرائم وغيرها التي ارتكبتها الأمم خروج عن الصراط المستقيم وانحراف عنه، والرسل يبينون هذا الصراط ويحاربون الخروج عليه بأي شكل من الأشكال كان. (46) وهكذا نجد دعوات الرسل لم تنفصل عن مشكلات البشر، ولم تغفل أحوال المجتمع الإنساني وما تتطلبه من علاج وإصلاح. (47)

د- دعوة الناس إلى الالتزام بشريعة الله: لا تقف مهمة الرسل عند بيان الحق وإبلاغه، بل عليهم دعوة الناس إلى الأخذ بدعوتهم، والاستجابة لها، وتحقيقها في أنفسهم اعتقادا وقولا وعملا، وهم في ذلك ينطلقون من منطلق واحد، فهم يقولون للناس أنتم عباد الله، والله ربكم وإلهكم، والله أرسلنا لنعرفكم كيف تعبدونه، ولأننا رسل الله مبعوثون من عنده، فيجب عليكم أن تطيعونا وتتبعونا: **«ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت»** [النحل: 36]، **«وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون»**. [الأنبياء: 25]

ودعوة الرسل إلى الله تقترن دائما بالتبشير والإنذار.. ولذلك قصر القرآن مهمة الرسل عليهما في بعض آياته: **«وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين»** [الكهف: 56] وتبشير الرسل وإنذارهم دنيوي وأخروي، فهم في الدنيا يبشرون الطائعين بالحياة الطيبة: **«من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة»** [النحل: 97]. ويخوفون العصاة بالشقاء الدنيوي: **«ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا»** [طه: 124]، ويحذرونهم العذاب والهلاك الدنيوي: **«فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود»** [فصلت: 13]. وفي الآخرة يبشرون الطائعين بالجنة ونعيمها: **«ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك هو الفوز العظيم»** [النساء: 13]. ويخوفون المجرمين والعصاة عذاب الله في الآخرة: **«ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين»**. [النساء: 14] (48)

هـ ـ قيادة الأمة وسياستها الدينية والدنيوية: (الذين يستجيبون للرسل يكونون جماعة وأمة، وهؤلاء يحتاجون إلى من يسوسهم ويقودهم ويدبر أمورهم، والرسل يقومون بهذه المهمة في حال حياتهم، فهم يحكمون بين الناس بحكم الله: «**فاحكم بينهم بما أنزل الله**». [المائدة: 48]

ونادى رب العزة داود قائلا: «**يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق**» [ص: 26]. وأنبياء بني إسرائيل كانوا يسوسون أمتهم بالتوراة، وفي الحديث: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي قام نبي»،(49) وقال الله عز وجل عن التوراة: «**يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا**». [المائدة: 44] (50)

(فالرسول في قومه قائدهم وزعيمهم، ورئيسهم وحاكمهم، وقاضيهم ومدبر سياستهم الدينية والدنيوية.

ولذلك أمر الله أتباع كل رسول بطاعة رسولهم، وجعل طاعتهم للرسول جزءا من طاعته سبحانه، فقال تعالى: «**وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله**» [النساء: 64] أما كون الرسول حاكما وقاضيا في أمته، فتشهد له نصوص كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى مخاطبا رسوله محمدا ﷺ: «**وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلموا أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون**». [المائدة: 49] (51)

و ـ الشهادة على الأمة بالتبليغ وأداء الأمانة: (ولما كان الرسول مبلغا ومبينا، ومربيا قائدا، حُق له أن يكون شاهدا على أمته يوم القيامة، بأنهم سمعوا تبليغه لشرائع الله وأحكامه، وسمعوا بيانه للنصوص الربانية، وأن يكون شاهدا لمن آمن به وأطاع، وشاهدا على من خالفه وعصى. (52)

وقد بين الله تعالى هذه الوظيفة من وظائف الرسل، فقال تعالى: «**يوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين**». [النحل: 89]

3-6 مزايا دعوة الأنبياء:

هذا والملاحظ في تاريخ البشرية أن هناك أشخاصا آخرين ظهروا على مسرح التاريخ الإنساني وحاولوا أن يقوموا بالإصلاح والتغيير في المجتمعات التي ظهروا فيها، ولكنهم لم يستطيعوا أن يقوموا بالدور الذي قام به الأنبياء في مجتمعاتهم والأمم التي ظهروا فيها، فالأنبياء. لم يكونوا يتكلمون بأهوائهم ولا بتصوراتهم الخاصة، ولا بتصورات البشر القاصرة المحدودة: «**وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى**» [النجم: 3-4]. لذلك فإن ما كانوا يدعون إليه الناس من قيم ومثل ومبادئ وأخلاق وسلوك عملي، لم يكن متأثرا برؤيتهم الشخصية، ولا بمصالحهم الذاتية أو أطماعهم أو أحقادهم، ولا بالقصور البشري.

وهم - بالتوجيه الرباني - لم يكونوا يتعاملون مع المشكلات الجزئية العارضة، إنما كانوا يتعاملون مع الجذور الأصلية العميقة... فهم إنما يعنون بتقويم النفس من أساسها، ثم يقدمون الحلول الشاملة التي يوحي بها الله إليهم لعلاج انحرافات المجتمع، فيقوم الإصلاح على أساس مكين من داخل النفس، متمثلا في منهج شامل، لا يحل جزئية ويدع جزئية أخرى، كما أنه لا يحل جزئية على حساب جزئية أخرى.

ثم إن الحلول التي كانوا يقدمونها - بالتوجيه الرباني - هي مناهج عملية منزلة من لدن اللطيف الخبير الذي يعلم كل شيء عن النفس البشرية والمجتمع البشري، ويعلم الطريقة الصحيحة التي تستقيم بها حياة البشر على الأرض: «**قل ءأنتم أعلم أم الله**» [البقرة: 140]، «**وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون**». [البقرة: 216]

والأنبياء بذواتهم هم القدوة الحية التي تتمثل فيها بادئ ذي بدء المبادئ والقيم والأفكار التي يدعون إليها، فالله سبحانه وتعالى يختار أنبياءه ورسله من الأخيار، ثم يصوغ نفوسهم الصياغة التي تؤهلهم لحمل الحق الذي يبلغونه للناس، فيكونون هم النموذج الذي يحتذى، ولا تقع الفرقة بين ما يفعلونه وما يدعون إليه.

والأنبياء كانوا يختلطون بالناس ويدعونهم دعوة مباشرة إلى الأفكار والمبادئ والقيم التي يحملونها. وأهم من ذلك أنهم يربون أتباعهم عليها، بربط قلوبهم بالله، وذلك هو الجهد الحقيقي الذي يبذله الأنبياء ويؤتي ثماره في واقع الأرض..

وكما ينفرد الرسل بمنهجهم الإصلاحي الشامل - الموحى به من عند الله - وبالطريقة التي يثبتون بها دعائم هذا المنهج في الواقع، فإنهم ينفردون كذلك بالعلم النافع الذي يقرب من الله وينجي من عذابه يوم القيامة، والذي ينفع الناس في دنياهم وآخرتهم معا.. هذا العلم النافع هو المعرفة اليقينية بالله واليوم الآخر، واتباع ما أنزل الله في الحياة الدنيا.. وهذا العلم النافع ينفرد به الأنبياء والرسل لأنهم يتلقونه تلقيا مباشرا من الله سبحانه وتعالى عن طريق الوحي، ويؤمنون به إلى درجة اليقين، ثم يدعون الناس إلى الإيمان به لتصلح دنياهم وآخرتهم. (53)

7- مدى نجاح الأنبياء في إصلاح وتغيير المجتمع الإنساني:

الذي لا يشك فيه مؤمن أن الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم جميعا قد أدوا واجبهم في قيادة الفكر والقلب، وورثوا الأجيال المتعاقبة حقائق الإيمان بالله سهلة غضة. (54)

ولكن التساؤل الذي يطرح نفسه هو: هل نجح الأنبياء في حمل الناس على الاعتقاد الحق والسلوك القويم؟

فالإنسانية منذ نشأتها الأولى، عرفت رسالات السماء، والذي يتأمل سير الركب البشري منذ النشأة الأولى، يلاحظ أن البشرية تبدأ طريقها مهتدية مؤمنة موحدة، ثم تنحرف إلى جاهلية ضالة مشركة، بفعل العوامل المتشابكة والمعقدة في تركيب الإنسان ذاته، وفي العوالم والعناصر التي يتعامل معها.. ويرى موكب الإيمان وهو يحاول هداية هذا الركب واستنقاذه كلما ضل تماما عن معالم الطريق وقاده الشيطان كلية إلى المهلكة ليسلمه في نهايتها إلى الجحيم. (55)

وقد ضرب الله سبحانه وتعالى - في كتابه الكريم- مثلا عن مواكب الرسل والرسالات... وكيف يقابلها أهل الأرض.. يقول سبحانه وتعالى: «**واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون. إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون. قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون. قالوا ربنا يعلم أنا إليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين. قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم. قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون**». [يس: 13-19]

فقد قال سبحانه: «**واضرب لهم مثلا أصحاب القرية**»، ولم يقل تبارك وتعالى أية قرية.. فإن هذا المثل ينطبق على كل قرية.. أو كل جماعة من الناس تسكن بقعة من الأرض فيها نعمة من نعم الله يتمتعون بها ويقيمون عليها حياتهم..

لماذا قال الله "أصحاب القرية" ولم يقل أهل القرية.. لأن الذين يقاومون رسالات السماء ويحاربون الرسل هم أصحاب النفوذ والسلطان الذين أترفوا في الحياة الدنيا وأعطاهم الله الجاه والملك.. وفي غالب الأمر يكون باقي الناس تبعا لهؤلاء.. إما خشية من نفوذهم وسلطانهم وإيذائهم.. أو محاولة للتقرب منهم باعتبارهم الوسيلة المتاحة أو الظاهرة للحصول على نعم الدنيا...

ومن هنا جاء المثل الذي ضربه الله سبحانه وتعالى بلفظ "أصحاب القرية" على أساس أن هؤلاء هم الذين يكذبون الرسل ويؤذونهم، ويحاولون بما أتاهم الله من نعمة أن يبارزوا الله بالمعاصي.

لكن.. لماذا يحارب هؤلاء الذين أترفوا في الدنيا.. لماذا يحاربون الرسول؟

الجواب الواضح؛ أنهم يخشون على نفوذهم وسلطانهم من الحق ومن رسالات السماء.. ذلك أن هؤلاء الناس أقوياء بحكم ما هم فيه.. وهم في قوتهم يظلمون ويأكلون الحقوق بالباطل ويفعلون ما يريدون دون مراعاة لحق الضعفاء.. إذ يتخذونهم عبيدا.. أو يجعلونهم يعملون من أجلهم ولا يعطونهم

حقوقهم أو أجورهم.. أو يقتنوا لأنفسهم أشياء تميزهم عن بقية أهل القرية بحجة السيادة أو حقوق الحكم إلى آخر ذلك... والرسالات السماوية أساسها حماية الضعيف من القوي.. وغير القادر من القادر... وتجعل الناس متساوين، لا فرق بين أحد وأحد...

ومن هنا فإن أول من يقاوم رسالات السماء ويحاول أن يكذبها هم هؤلاء، لأنها ستجردهم من ميزات حصلوا عليها بالباطل وفرضوها.. وستجعلهم مساوين للضعفاء في الحقوق والواجبات.. وستقضي للضعيف من القوي.. فلا عجب إذا رأوا أن ذلك هو زوال لنفوذهم وذهاب لسلطانهم، أن يكونوا أول المكذبين. (56)

وليس الذي ينقص هؤلاء الكبراء المعاندين هو توافر دلائل الإيمان، فهم معاندون ومكابرون، مهما تأتهم من آية بينة... ويرسم القرآن الكريم نموذجا باهرا للمكابرة والعناد في مواجهة دعوة الرسل إلى الله رب العالمين: «**ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون**» [الحجر: 13]، إنه نموذج بشري للمكابرة والاستغلاق والانطماس، وهذا النموذج ليس محليا ولا وقتيا، إنه نموذج للإنسان حين تفسد فطرته، وتستغلق بصيرته، وتتعطل في كيانه أجهزة الاستقبال والتلقي، وينقطع عن الوجود الحي من حوله، وعن إيقاعاته وإيحاءاته. (57)

لقد آذى هؤلاء وأتباعهم الرسل الأنبياء، واستكبروا عن طاعتهم، فقتلوا بعضا منهم، وأخرجوا بعضا من ديارهم، حتى لم يؤمن بفريق من هؤلاء الأنبياء بعدما أفنوا أعمارهم في الدعوة إلا بضعة نفر فقط. لكن عباد الله المصطفين هؤلاء، ما وهنوا ولا استكانوا في جهودهم، حتى أثّرت دعوتهم واتبعهم كبار أمم الأرض.

لكن الذي حدث أن الضلالة لم تنهزم، بل اختارت قالبا جديدا لنفسها، فبدلت الأمم تعاليم الأنبياء بعد وفاتهم، وأدخلت في كتبهم ظنونا كاذبة

واخترعت للعبادة طرقا جديدة، فمن الناس من يعبد الأنبياء أنفسهم، ومنهم من قال إن الله نزل إلى الأرض بصورة نبيه، ومنهم من جعل نبيه ابن الله، ومنهم من أشرك نبيه بالله في ألوهيته. وهكذا عبث البشر في مختلف الأزمان وسائر الأقطار بتعاليم الأنبياء بعد وفاتهم: جعلوا أصناما وتماثيل للذين كسروها من قبل، وعكفوا عليها، ومسخوا تعاليم الأنبياء وشرائعهم ومزجوها بأنواع من البدع والرسوم الجاهلية والتقاليد الكاذبة والأقاصيص الملفقة، وخلطوها بما وضعه الإنسان من القوانين من تلقاء نفسه، حتى لم تبق للإنسان بعد عدة قرون وسيلة يميز بها هداية الرسل وشريعتهم الأصلية، مما خلطها به من جاء بعدهم من أتباعهم. وكذلك غابت في ثنايا الروايات الملفقة أحوال الأنبياء وسيرهم الحقيقية، حتى ما بقي عند الناس شيء يعتمد عليه ويوثق به..(58).

وهنا قد يعن للإنسان أن يسأل: ترى هل تساوي الحصيلة الجهد الطويل الموصول، والتضحيات النبيلة التي بذلها الأنبياء لهداية البشرية الضالة المعاندة، من لدن نوح - عليه السلام - إلى محمد - عليه الصلاة والسلام - ثم ما كان بينهما وما تلاهما من جهود المؤمنين بدعوة الله وتضحياتهم الضخام؟

ترى هل تساوي هذا الجهد الشاق، الذي استغرق عمرا طويلا بالغ الطول، لم يكتف الناس فيه بالإعراض عن الرسل ودعوتهم، بل أتبعوهم بالسخرية والاتهام، وهم يتلقون كل ذلك بالصبر والحسنى والأدب الجميل والبيان المنير؟...

ثم.. ترى هل هذه البشرية كلها تساوي تلك العناية الكريمة من الله، المتجلية في استقرار إرادته سبحانه على إرسال الرسل تترى بعد العناد والإعراض والإصرار والاستكبار من هذا الخلق الهزيل الصغير المسمى بالإنسان؟

والجواب بعد التدبر: أن نعم.. وبلا جدال..!

إن استقرار حقيقة الإيمان بالله في الأرض يساوي كل هذا الجهد، وكل هذا الصبر، وكل هذه المشقة، وكل هذه التضحيات النبيلة المطردة من الرسل وأتباعهم الصادقين في كل جيل!

ولعل استقرار هذه الحقيقة أكبر من وجود الإنسان ذاته، بل أكبر من هذا الكون الهائل الذي لا تبلغ الأرض أن تكون فيه هباءة ضائعة لا تكاد تحسّ أو ترى!. [59]

فـ (جهود الأنبياء ومساعيهم ما ذهبت كلها سدى، فقد بقي جزء من الصدق والحق في كل أمة، على الرغم من مسخها لتعاليم نبيها ومزجها إياها بما شاءت، فقد انتشرت العقيدة بالله والحياة الآخرة في جميع الأمم بأية صورة من الصور، وسلمت الدنيا عامة بمجموعة من مبادئ الصلاح والصدق والأخلاق، وربى كل نبي أمته وهيأها لقبول الحق، حتى أصبح من الممكن أن يعم الأرض كلها من أقصاها إلى أقصاها دين واحد بعينه، ويكون هو الدين الوحيد للإنسانية جمعاء، من غير ما فرق بين مختلف أممها). [60]

وإننا لنستطيع أن نقول في اطمئنان أن كل ما عرفته البشرية من خير حقيقي، مرجعه إلى الوحي الرباني الذي حمله الرسل ودعوا إليه، ووثقوا وجوده الواقعي في الأرض بجهادهم، وإن كل ما أصاب البشرية من شر كان سببه الانحراف عن تعاليم الرسل وعدم الاقتداء بهم. [61]

فكل خير نرى له أثرا في بقعة من بقاع الأرض، وكل نور يومض في أية أمة حتى لو كان ضئيلا، ولك أثارة من إصلاح، أو كرم خلق، أو صفاء سريرة وطهارة قلب، فإن مما لا ريب فيه أن مرده في الأصل إلى رسالات الله، أي إلى هداية النبيين عليهم السلام. [62]

وكل ما يوجد في هذا العالم من المعاني الإنسانية الكريمة، والأحاسيس الرقيقة اللطيفة، والأخلاق العالية الفاضلة والعلوم الصحيحة النافعة، ومن القوة والعزم على محاربة الباطل والفساد، إنما يرجع فضله وينتهي تاريخه

إلى وحي السماء وتعليمات الأنبياء وتبليغهم ودعوتهم وجهادهم، وإلى أصحابهم وتابعيهم بإحسان. (63)

فأعظم الناس تأثيرا في المسار التاريخي للحضارة الإنسانية هم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، على تفاوت بينهم في نسبة هذا التأثير، (64) كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: «**تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض**». [البقرة: 253]

وإذا كان الكثيرون من الأنبياء لم يستجب لهم أقوامهم، فإن ذلك لا يعود إلى إخفاقهم في تليغ الرسالة، ولا إلى تقصير ناشئ عن خطأ في التبليغ، أو اعوجاج في الطريقة المتبعة، وإنما نشأ عن عناد وإصرار على الخطأ عند بعض أولئك المدعوين. وهذه طبيعة ليست عند أولئك فحسب، ولكن هؤلاء الأنبياء مع أقوامهم ليسوا إلا مثلا للإنسانية كلها، في جميع ظروفها وعصورها، فدعاة الخير في كل زمان يجدون المعارضة، ويلقون المشقة، ويقابلون في طريقهم صعوبات كثيرة. هذه سنة من سنن الله في المجتمع البشري. (65)

ذلك أن الهداية التي جاء الأنبياء لأجل اقتياد الإنسانية في ضوئها إلى ربهم عز وجل - لكي تؤدي غايتها - تقوم على طرفين: طرف بيد الله الخالق، وهذا ما فعله بالفعل حين بعث أنبياءه ورسله لإرشاد عباده. والطرف الآخر بيد الإنسان نفسه، الذي أهمل بدوره هذه الهداية ولم يصغ إليها، ولم يلتزم بتعاليمها، ومضى سادرا في غوايته وضلالته.

فالنبوة لا تعني بحال أنها تخلق الإيمان في نفس الإنسان خلقا، أو تحقق كماله تلقائيا، دون إرادة الإنسان واختياره، وإنما تعني أنها تهيء له المناخ الصالح والظرف المؤاتي لتكمل ذاته روحيا ونفسيا بإرادته واختياره. فإذا أراد الإنسان بسوء اختياره عكس ما جاءت به الرسالات فالعيب يكون حنيئذ فيه، لا في أساس مبدأ النبوة...

ومن الخطأ بعد هذا أن نتصور أن الرسالات الإلهية سوف تمحو كل انحراف عن وجه الأرض، وتقضي على كل فساد، وتخلق الكمالات الإنسانية خلقا بصورة حتمية.

ومع ذلك فقد استطاعت الرسالات أن تحقق مهمتها وتؤتي ثمارها بنجاح في عصورها التي وجدت فيها، وتركت آثارها بارزة في واحات بشرية من أفراد وجماعات، انصهرت بدعوة الأنبياء. (66)

8- مستقبل الإنسانية في ضوء علاقتها بدعوة الأنبياء:

هذا، وإذا قلبنا صفحة الماضي، وجئنا نتطلع إلى عصرنا بنظرة تستشرف واقع المجتمع الإنساني، وتنفذ إلى أعماق كيانه المادي والمعنوي، فلا شك أننا سنتساءل كما تساءل المفكر الباكستاني المعاصر الشيخ أبو الأعلى المودودي رحمه الله، حين كتب متسائلا:

(ما للأمن والسلام قد طار عن حياتنا..؟ وما للنوازل والكوارث تنزل بنا..؟ وما لكل الأمم تتشابك وتتصادم بينها؟ وما لكل بلد في هذا العالم قد أصبح في صراع عنيف مع بلد آخر؟ وما للإنسان قد تحول ذئبا مفترسا..؟ وما لمئات الآلاف من أفراد البشرية يذهبون ضحايا الحروب؟ وما للتجارات والصناعات.. تتبدد وتذهب هباء منثورا؟ وما للمدن والقرى نراها تتحول قفارا مع مرور الأيام؟ وما للأقوياء يأكلون الضعفاء؟ وما للأغنياء يمتصون دماء الفقراء؟ .. أما الحكومة ففيها الظلم، وأما المحكمة ففيها الحيف، وأما الثورة ففيها الغطرسة، وأما السلطة ففيها الاستكبار، وأما الصداقة ففيها قلة الوفاء، وأما الأمانة ففيها الخيانة، وأما الأخلاق فهي خالية من التجرد والإخلاص.. قد أصبح الإنسان متهما في نظر الإنسان، وقد ارتدت اللادينية أقنعة الديانة، وقد توزع بنو آدم إلى ما لا يُحصي من الطوائق، وكأن كل طائفة منها أصبحت تعتبر من أعمال البر والثواب أن تضر بغيرها عن طريق الخداع والغش والظلم والعدوان والخيانة والغدر وعن أي طريق ممكن آخر. فما منشأ

كل هذه المفاسد والمساوئ، وأين مأتاها؟... وما للإنسان قد أصبحت حياته محرومة من نعمة الأمن والسلام؟

هذا سؤال عظيم قد استعصى على الناس علاجه.. ولكن بودي أن أجيب عنه على كامل ثقة وطمأنينة، فهذا جوابي عليه إذا آثرت الإيجاز:

إن الإنسان قد قلب حياته وجعلها متنافية مع الحقيقة والواقع، فهو ـ لأجل هذا ـ يعاني ما لا يوصف من المحن والمصاعب، ولن يجد سبيلا إلى الأمن والسلام حتى يجعل حياته متفقة منسجمة مع الحقيقة والواقع). (67)

فالذي قلب الدنيا ـ إذن ـ ووزع الشقاء في حياة الإنسان؛ أن الناس أخرجت الحياة الدنيا عن معنى وجودها، إذ حولوها من وسيلة إلى غاية. ورغم أن الله سبحانه وتعالى قد وضع في حياتنا أن هذه الدنيا ليست هي الهدف من خلق الإنسان وإنما هي وسيلة للآخرة، هي اختبار من الله سبحانه وتعالى لعباده يأتي الجزاء عليه في الآخرة، ولكن الناس يحاولون أن يحصلوا على النعم الدنيوية بأي وسيلة ولو عن طريق الحرام. وهم في انطلاقهم إلى الأخذ من الدنيا ينسون أن هناك حياة دائمة في الآخرة، وكأنما وجود الإنسان في الحياة الدنيا هو الهدف من خلقه.

والإنسان حين يتخذ الدنيا غاية، فإنه بدلا من أن يتبع منهج الله الذي أنزله للبشرية يحاول أن يضع هو المنهج لنفسه.. فيفسد بدلا من أن يصلح.. لماذا؟ لأن لكل واحد منا غرضا يريد أن يحققه.. لذلك عندما يبدأ الإنسان في تنظيم حياته يحاول أن يحقق لنفسه أكبر الميزات، فهو باعتقاده أن الدنيا هي الغاية، يحاول أن يحصل فيها على أقصى ما يستطيع. ولذلك تأتي القوانين معوجة ولتحقيق أغراض خاصة..

ولأن الإنسان محدود العلم، محدود القدرة.. فهو لا يستطيع أن يرى من المستقبل شيئا.. ولذلك يضع القوانين التي تعالج حالات ظاهرة.. ولكن ما خفي عليه لا يتنبه له.. ثم تأتي الأيام لتظهر بعض ما كان خافيا.. فتجد أن القوانين

التي وضعت غير صالحة وهي محتاجة إلى تعديل.. وهكذا يحدث تعديل بعد تعديل ليعالج داءات ظهرت لم ينتبه إليها.. وكان من الأجدر بالناس بدلا من أن يدخلوا في هذه التجارب المريرة التي تسبب لهم الشقاء، أن ينتبهوا إلى أن خالق هذا الكون الذي أوجده وحدد هدفه، قد وضع له القوانين التي تصلح له.. والعجيب أن البشر يرفضون تطبيق قوانين الدنيا في استقبالهم لمنهج الله.. فصانع الشيء في الدنيا هو الذي يضع قوانين صيانته ومنهج عمله.. فالذي صنع التلفزيون مثلا هو الذي يقول لك كيف يعمل، وأي القواعد تتبع لحسن تشغيله، فإذا فسد في التلفزيون شيء أسرعت به إلى صانعه ليصلحه ويعيده إلى أداء مهمته، فإذا لم يكن الصانع موجودا فهناك وكيل عنه قد أخذ الصنعة منه، فإذا لم يكن الوكيل موجودا لجأنا إلى الكتالوج الذي أعده الصانع لنستعين به. (68)

هذا والملاحظ أنه (إذا كان الناس في القديم يجادلون الرسل ويرفضون علومهم، ويعرضون عنهم، فإن البشر ـ اليوم في القرن العشرين حيث بلغت البشرية ذروة التقدم المادي، فغاصت في أعماق البحار، وانطلقت بعيدا في أجواز الفضاء، وفجرت الذرة، وكشفت كثيرا من القوى الكونية الكامنة في هذا الوجود ـ أشد جدالا للرسل، وأكثر رفضا لعلومهم، وأعظم إعراضا عنهم، وحال البشر اليوم من الرسل وتعاليمهم كحال الحمر المستنفرة حين ترى الأسد فتفر منه لا تلوي على شيء، قال تعالى: «**فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة**». [المدثر: 49-51]

يأبى البشر ـ اليوم أكثر من قبل ـ التسليم للرسل وتعاليمهم اغترارا بعلومهم، واستكبارا عن متابعة رجال عاشوا في عصور متقدمة على عصورهم: «**ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات، فقالوا أبشرا يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد**». [التغابن: 6]

واليوم ينفخ شياطين الإنس في عقول البشر يدعونهم إلى التمرد على الله وعلى شريعة الله، ورفض تعاليم الرسل، بحجة أن في شريعة الله حجرا

على عقولهم، ووقفا لركب الحياة، وتجميدا للحضارة والرقي، وقد أقامت الدول اليوم نظمها وقوانينها وتشريعاتها على رفض تعاليم الرسل، بل إن بعض الدول تضع الإلحاد مبدأ دستوريا، وهو الذي يسمى بالعلمانية). (69)

والذي زاد في غرور الإنسان وضلاله أكثر، هذه التكنولوجيا التي صنعها ثم عبدها.. والحق (أن الظن بأن "التكنولوجيا" تصنع الإنسان، إنما هو استخذاء من "إنسان العصر" أمام "المادة" بعد أن فقد ذلك الإنسان مقومات إنسانيته.

لقد خلق الله الإنسان ليكون هو السيد في الأرض بإذن من الله، وكلفه عمارة الأرض، وييسرها له، وسخر له من أجل القيام بهذه المهمة ما سخر من طاقات السماوات والأرض... وكل "التكنولوجيا" التي صنعها الإنسان كانت من اجل تحقيق عمارة الأرض، ليكون هو السيد فيها بإذن من ربه.. ولكن الإنسان المعاصر استخذى أمام ما صنعه بيديه، فصار عبدا للآلة، كما كان في الجاهليات الوثنية القديمة ينحت الصنم بيديه ثم يعبده!

وهكذا الإنسان حين يفقد صلته بالله، فإنه يستعبد نفسه للآلهة المزعومة، ويفقد حريته إزاءها، فتحكمه الأوهام الأهواء والشهوات، سواء كانت أوهامه الذاتية وأهواءه وشهواته الذاتية، أم كانت مفروضة عليه من الذين استكبروا في الأرض من أصحاب السلطان). (70)

كل ذلك دليل على أن الإنسانية لا يمكنها أبدا أن تستغني عن هدي الأنبياء ورسالاتهم، فوقائع التاريخ وصور الواقع المشهود تثبت أن فقدان حكم الدين - الذي جاء به الرسل والأنبياء - وغيابه عن الحضور في الواقع الإنساني قد أدى إلى غياب كل المظاهر الربانية الطيبة، لتحل محلها نتائج خطيرة جدا، كان لها أثرها في حياة الفرد والمجتمع على سواء. ففي ظل غياب الدين، انتشرت الخرافات والأباطيل وارتكس العقل الإنساني إلى حمأة الجهل والضلال.

وفي ظل غياب الدين، استعبد الإنسان أخاه الإنسان، دونما شفقة ولا رحمة.

وأمام غياب الدين، وجد صيادو المصالح وعباد الشهوات والأهواء ضالتهم، فراحوا يبتزون الناس ويعاملونهم بجشع وقسوة، فانتشر الإستغلال والسلب والنهب، وعمت الفوضى العلاقات والمعاملات، ولم تعد تحكمها شريعة ولا نظام.

وفي ظل غياب الدين، انعدمت القيم الاجتماعية وغابت مظاهر التعاون والتراحم بين الناس، وحلت محلها قيم المادة العمياء والتهافت على الدنيا ومغرياتها دون مراعاة ضعف ضعيف أو قصور قاصر.

وفي ظل غياب الدين، تمزقت النفس الإنسانية أشتاتا، وأصبح الإنسان يعيش واقع التمزق النفسي والضياع الفكري، حتى لم يعد يجد من نفسه أي دافع يدفعه إلى الكفاح في الحياة من أجل واقع أفضل أو حياة أرقى وأسعد.. بل لقد أهان الإنسان نفسه وحطم جسده وكيانه بما تناوله من مضار وما أقدم عليه من مهالك.

وفي ظل غياب الدين، وجدنا من الأفراد من أله نفسه، وشعر بالاستعلاء على بقية الناس، حتى لم يعد له من هم غير خدمة نفسه وقضاء مصالحه وتلبية ملذاته وشهواته، دون أن يهتم بما قد يجره ذلك من ضرر على المجتمع أو على بقية أفراده. (71)

ونحن إذا نظرنا للعالم اليوم؛ نجد أنه يلمؤه الشقاء، ولو استمعت إلى أي نشرة أخبار في الإذاعات أو في الصحف، لوجدت أنها تحمل من أخبار الدمار والخراب والقتل والحروب، أكثر مما تحمل من أخبار الخير والبركة والحياة الآمنة للناس. (72)

لقد امتلأت الأرض بالفساد، ودارت الأرض بسكانها كما تدور الخمر بالرؤوس حتى ليوشكن أن يكون هذا الرقي العقلي نكسة إنسانية مروعة. (73)

ولا خلاص للإنسانية ولا نجاة لها إلا إذا عادت إلى ربها خاشعة ضارعة، تستهدي بوحيه الذي أنزل، وتحتكم إلى شرعه الذي أقر.

فلن ينقذ البشرية من الدمار - ولا في أي يوم - إلا أن تعود إلى تعاليم الرسل تطبقها في واقع حياتها، [74] ذلك أنهم وحدهم، والمناهج التي خطوها فحسب، هي الصراط الذي تستوي عليه الإنسانية صاعدة إلى الكمال، بعيدة عن مزالق الفتن ومهاوي الخيال.. صراط الله المستقيم الذي هو الإسلام: **«إن الدين عند الله الإسلام»** [آل عمران: 19]، **«ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين»**. [آل عمران: 85]

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**
- **الأشقر:** عمر سليمان

1- الرسل والرسالات، قصر الكتاب - البليدة (الجزائر)، بدون تاريخ.

- **الأصفهاني:** الراغب

2 - معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، تحقيق نديم مرعشلي، دار الكتاب العربي - بيروت، 1972م.

- **برغوث:** الطيب

3 - منهج النبي صلى الله عليه وسلم في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي - واشنطن، 1417هـ - 1996م.

- **البوطي:** محمد سعيد رمضان

4 - الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية؛ لماذا..؟ وكيف..؟، ط 1، دار الفكر - دمشق، 1404هـ - 1984م.

- **بيوض:** إبراهيم بن عمر

5 - في رحاب القرآن، ج 4: تفسير سورتي الأنبياء والحج، تحرير عيسى بن محمد الشيخ بالحاج، نشر جمعية التراث - القرارة - الجزائر، ط1، 1417هـ - 1997م.

- **الجزائري:** أبو بكر جابر

6 - عقيدة المؤمن، دار الفكر العربي - القاهرة، بدون تاريخ.

- **خليل**: عماد الدين
7 - التفسير الإسلامي للتاريخ، ط 2، دار العلم للملايين - بيروت، 1981م.
8 - مع القرآن في عالمه الرحيب، ط 2، دار العلم للملايين - بيروت، 1980م.
- **الحمصي**: أحمد فائز
9 - قصص الرحمن في ظلال القرآن، ط 1، مؤسسة الرسالة - بيروت، 1415هـ - 1995م.
- **الديلمي**: عبد الوهاب بن لطف
10 - معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم، ط 1، دار المجتمع - جدة، 1406هـ - 1986م.
- **الشعراوي**: محمد متولي
11 - معجزة القرآن، شركة الشهاب - الجزائر، بدون تاريخ.
- **الصدر**: محد باقر
12 - خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء، دار المنتظر - بيروت، بدون تاريخ.
- **ابن عاشور**: محمد الطاهر
13 - تفسير التحرير والتنوير، ط 1، الدار التونسية للنشر - تونس، 1984م.
- **عباس**: فضل حسن
14 - قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، ط 1، دار البشير - عمان، 1417هـ - 1996م.
- **الغزالي**: محمد
15 - علل وأدوية، ط 3، دار الشهاب - باتنة، 1406هـ - 1986م.
16 - نظرات في القرآن، ط 6، دار الشهاب - باتنة، 1406هـ - 1986م.
17 - من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث، دار الشهاب - باتنة، 1407هـ - 1986م.
18 - مع الله؛ دراسات في الدعوة والدعاة، ط 5، المكتبة الإسلامية - القاهرة، 1401هـ - 1981م.
19 - عقيدة المسلم، دار الشهاب - باتنة، 1405هـ - 1985م.
20 - خلق المسلم، ط 15، مكتبة رحاب - الجزائر، 1408هـ - 1987م.
- **فلوسي**: مسعود بن موسى
21 - محاضرات في مقاصد الشريعة الإسلامية. لطلبة السنة الرابعة قسم الفقه والأصول بالمعهد الوطني للتعليم العالي للعلوم الإسلامية - باتنة 1994 - 1995.

- **القرضاوي**: يوسف
22 - الخصائص العامة للإسلام، دار الشهاب - باتنة، بدون تاريخ.
- **قطب**: سيد
23 - مقومات التصور الإسلامي، ط 4، دار الشروق - القاهرة، 1414هـ-1993م.
- **قطب**: محمد
24 - كتاب منهج علم التوحيد، ج 3، ط 6، مكتبة رحاب - الجزائر، 1410هـ - 1990م.
25 - لا إله إلا الله؛ عقيدة وشريعة ومنهاج حياة، ط 2، دار الشروق - القاهرة، 1414هـ - 1993م.
- **المودودي**: أبو الأعلى
26 - بر الأمان، ترجمة خليل أحمد الحامدي، الدار السعودية للنشر - جدة، 1404هـ - 1984م.
27 - مبادئ الإسلام، مكتبة رحاب - الجزائر، 1406هـ - 1986م.
- **الميداني**: عبد الرحمن حسن حبنكة.
28 - العقيدة الإسلامية وأسسها، ط 7، دار القلم - دمشق وبيروت، 1415هـ - 1994م.
- **النجار**: عبد المجيد
29 - خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ط 2، المعهد العالمي للفكر الإسلامي - واشنطن، 1416هـ - 1993م.
- **الندوي**: أبو الحسن علي الحسني
30 - النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، دار القلم - الكويت، بدون تاريخ.
31 - العقيدة والعبادة والسلوك في ضوء الكتاب والسنة والسيرة النبوية، دار القلم - الكويت، بدون تاريخ.
32 - ملة إبراهيم وحضارة الإسلام.
- **الندوي**: سليمان
33 - الرسالة المحمدية؛ ثمان محاضرات في السيرة النبوية ورسالة الإسلام، ترجمة محمد ناظم الندوي، ط2، الدار السعودية - جدة، 1404هـ - 1984م.
- **نعمة**: عبد الله
34 - عقيدتنا في الخالق والنبوة والآخرة، ط 1، مؤسسة عز الدين - بيروت، 1401هـ - 1981م.
- **يحفوفي**: علي سليمان
35 - الرسل والرسالات، ط 1، الدار العالمية - بيروت، 1403هـ - 1982م.

الهوامش والمصادر والمراجع

1 - أبو بكر جابر الجزائري: عقيدة المؤمن، ص11.

2 - سيد قطب: مقومات التصور الإسلامي، ص367.

3 - الراغب الأصفهاني: معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص157.

4 - أورده المتقي الهندي في "كنز العمال"، رقم: 5564.

5 - عبد المجيد النجار: خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ص62.

6 - عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي للتاريخ، ص186، وللمؤلف نفسه: مع القرآن في عالمه الرحيب، ص123.

7 - سيد قطب: مقومات التصور الإسلامي، ص369.

8 - محمد الغزالي: علل وأدوية، ص5-6.

9 - محمد قطب: كتاب منهج علم التوحيد، ص48.

10 - سليمان الندوي: الرسالة المحمدية، ص23.

11 - محمد الغزالي: علل وأدوية: ص10.

12 - سيد قطب: مقومات التصور الإسلامي: ص368.

13 - علي سليمان يحفوفي: الرسل والرسالات؛ بحوث في نهج البلاغة، ص11-13 بتصرف.

14 - محمد سعيد رمضان البوطي: الإسلام ملاذ كل المجتمعات الإنسانية؛ لماذا..؟ وكيف..؟، ص23-24.

15 - عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص272.

16 - عبد الوهاب بن لطف الديلمي: معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم، ج2، ص172-173.

17 - محمد الغزالي: عقيدة المسلم، ص184-185.

18 - علي سليمان يحفوفي: الرسل والرسالات؛ بحوث في نهج البلاغة، ص14-16.

19 - عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص275-277.

20 - أحمد فائز الحمصي: قصص الرحمن في ظلال القرآن، ج1، ص175.

21 - م.ن، ج1، ص182-183.

22 - إبراهيم بن عمر بيوض: في رحاب القرآن، ج4: تفسير سورتي الأنبياء والحج، ص17-18.

23- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص277.
24- محمد قطب: لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة، ص15-16.
25- محمد قطب: كتاب منهج علم التوحيد، ج3، ص27.
26- أبو الحسن الندوي: النبوة والأنبياء، ص40-42، وانظر أيضا للمؤلف نفسه: العقيدة والعبادة والسلوك في ضوء الكتاب والسنة والسيرة النبوية، ص73.
27- محمد الغزالي: عقيدة المسلم، ص185.
28- أحمد فائز الحمصي: قصص الرحمن في ظلال القرآن، ج1، ص248.
29- الطيب برغوث: منهج النبي في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية، ص84.
30- علي سليمان يحفوفي: الرسل والرسالات؛ دراسات في نهج البلاغة، ص21.
31- أبو الحسن الندوي: النبوة والأنبياء، ص53-54.
32- أحمد فائز الحمصي: قصص الرحمن في ظلال القرآن، ج1، ص257.
33- محمد الغزالي: عقيدة المسلم، ص185-186.
34- محمد قطب: كتاب منهج علم التوحيد: ج3، ص29-30.
35- أبو الحسن علي الحسني الندوي: النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، ص29-30، انظر أيضا: محمد قطب: كتاب منهج علم التوحيد، ج3، ص31-32.
36- محمد الغزالي: خلق المسلم، ص21-22.
37- الندوي: ملة إبراهيم وحضارة الإسلام، ص13-15.
38- أحمد فائز الحمصي: قصص الرحمن في ظلال القرآن، ج1، ص206-214 باختصار وتركيز.
39- م.ن، ج1، ص209-210.
40- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص279.
41- محمد الغزالي: مع الله؛ دراسات في الدعوة والدعاة، ص80-83 بتصرف.
42- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص278.
43- عمر سليمان الأشقر: الرسل والرسالات، ص43.
44- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص278.
45- عمر سليمان الأشقر: الرسل والرسالات، ص44.
46- عمر سليمان الأشقر: الرسل والرسالات، ص51.
47- يوسف القرضاوي: الخصائص العامة للإسلام، ص62-63.
48- عمر سليمان الأشقر: الرسل والرسالات، ص45-48.

49 - رواه البخاري ومسلم وأحمد وابن ماجة. انظر صحيح الجامع الصغير للألباني، ج4، ص190.
50 - عمر سليمان الأشقر: الرسل والرسالات، ص54.
51 - عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص281.
52 - م.ن، ص281-282.
53 - محمد قطب: كتاب منهج علم التوحيد، ج3، ص41-46.
54 - محمد الغزالي: عقيدة المسلم، ص185.
55 - أحمد فائز الحمصي: قصص الرحمن في ظلال القرآن، ج1، ص216.
56 - محمد متولي الشعراوي: معجزة القرآن، ج2، ص299-302 بتصرف وتلخيص.
57 - أحمد فائز الحمصي: قصص الرحمن في ظلال القرآن، ج1، ص219-220.
58 - أبو الأعلى المودودي: مبادئ الإسلام، ص51-52.
59 - أحمد فائز الحمصي: قصص الرحمن في ظلال القرآن، ج1، ص297-298.
60 - أبو الأعلى المودودي: مبادئ الإسلام، ص51-52.
61 - محمد قطب: كتاب منهج علم التوحيد، ج3، ص48-49.
62 - سليمان الندوي: الرسالة المحمدية، ص29 بتصرف يسير.
63 - أبو الحسن الندوي: النبوة والأنبياء في ضوء القرآن، ص29-31.
64 - الطيب برغوث: منهج النبي في حماية الدعوة، ص196-197.
65 - فضل حسن عباس: قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، ص135.
66 - عبد الله نعمة: عقيدتنا في الخالق والنبوة والآخرة، ص273-274.
67 - أبو الأعلى المودودي: بر الأمان، ترجمة: خليل أحمد الحامدي. الدار السعودية للنشر - جدة 1404هـ - 1984م، ص23-25 بتصرف.
68 - محمد متولي الشعراوي: معجزة القرآن، ج5، ص15-18 بتلخيص واختصار.
69 - عمر سليمان الأشقر: الرسل والرسالات، ص29.
70 - محمد قطب: لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة، ص12-13.
71 - مسعود فلوسي: محاضرات في مقاصد الشريعة الإسلامية، ص127.
72 - محمد متولي الشعراوي: معجزة القرآن، ج3، ص96 - طبعة شركة الشهاب - الجزائر.
73 - محمد الغزالي: نظرات في القرآن، ص90.
74 - محمد قطب: كتاب منهج علم التوحيد: ج3، ص49.